الفصل السابع

قدريون طموحون

لا يفتح بعض القراء الغربيين كتاباً عن الإسلام إلا بعد أن يبحثوا في فهرست المحتويات عن كلمات مثل «قسمة» و «قدر» و «حسد» و «الحرب المقدسة». وأنا لا أريد أن أخيب ظنونهم.

وكلمة «كسمت» المنتشرة في اللغة التركية (يقابلها في العربية قسمة) بمعنى النصيب أو القدر يعرفها المرء، في ألمانيا، إن لم يكن من العمال الأتراك، فمن كارل ماي. والأصل العربي لهذه الكلمة هو فعل «قَسّم» أي وزع أو قسم أقدار كل منّا ويفضل المرء في العالم العربي التعبير عن هذا المعنى باستخدام لفظ أو كلمة «مكتوب»، وأصلها فعل كتب. وهي تعني أن قدر كل إنسان «مدون» في كتاب كبير على غرار القرآن (اللوح المحفوظ). وسواء أكان «مقسوماً» أم «مكتوباً»، فإن كل المسلمين على اقتناع بأنه ما من شيء يقع دون معرفة أو علم سابق من الله العليم بكل شيء.

يقر كثير من المسيحيين أيضاً بذلك، ولكنهم لا يحبون مع ذلك أن يعترفوا بالنتيجة الحتمية التي لا بد من أن تترتب عليه، وهي أن ما نفترض أنها إرادة حرة لا يمكن إلا بصعوبة وصفها بأنها «حرة». وأنا أعرف أن كثيرين من الفلاسفة المسلمين فكروا كثيراً في القدر وحرية الإرادة [1] (أي ما إذا كان الإنسان مخيراً أم مسيّراً). ومن ثم، فليس هناك من حرج في أن نقر بعجزنا عن إدراك الكيفية التي يثيب الله العادل أو يعاقب بها الناس على أفعالهم، التي كان بمقدور الله العليم الرحيم القادر أن يمنعها. وبالمثل.، فإنه قليلاً ما يقبل عقلنا أنه كان بمقدور البشر

(١) انظر مراد هوفمان: «الإسلام كبديل». الطبعة الثالثة، ميونيخ (١٩٩٥)، فصل «القدرية».

أن يحركوا سلسلة أصلية من الأسباب. ومن الأفضل أن نتبع نصيحة الرسول ﷺ إذا كنا لا نريد أن نحطم رؤوسنا بالتفكير في مثل هذه الأمور، إذ إنه يمكن حقا أن يؤدي التفكير فيها إلى تحطيم رؤوسنا دون جدوى.

❖ ❖ ❖

لقد صادفت في حياتي كثيراً من الأحداث المذهلة التي يمكن للمرء أن يلصق عليها بطاقة «قسمة»، والتي تجعلني وغيري من المسلمين نشعر بالسكينة والطمأنينة، لأن الله القادر العليم يرعانا في السراء والضراء على السواء:

عام ١٩٤٤:

في أثناء الحرب الجوية الاستراتيجية في الحرب العالمية الثانية، كنت أعيش في مدينتي أشافينبرج، وكانت ذات حامية بها خمس كتائب من الجيش، إلى جانب كونها نقطة التقاء للمواصلات ومنطقة صناعية. وابتداء من سبتمبر عام ١٩٤٠، راحت تتعرض لغارات جوية منتظمة تقريباً. وبعد أن انتزعتني صفارات الإنذار من النوم أكثر من ٧٠٠ مرة، قررت أن أنام، مرتدياً ملابسي، في مخبأ للحماية من الغارات الجوية. وكنت أذهب إلى المدرسة، ومعي مؤونة الطوارئ والقناع الواقي من الغازات. وفي أحد الأيام، تعرضت مدرستي للقصف، وأصيب المخبأ الخاص بتلاميذ فصلي.

وكنت قد قررت بالفعل عند سماع أولى صفارات الإنذار، أن أنصرف!! ترى ما الذي كان يمكن أن يحدث، لو أنني كنت في المدرسة في تلك الأثناء؟!

ونظراً لعدم وجود مدرسة أذهب إليها، عملت على أن يكون بقائي بالمنزل مفيداً، فرحت أستمع باستمرار تقريباً إلى إذاعة «فيجارو»، التي كانت القوات

الجوية الألمانية توجهها. وكانت مدينة أشافينبرج بالنسبة لهم مربع الخريطة «ريتشارد توني ١». وهكذا، صرت أعرف على وجه الدقة ما إذا كان ضرورياً حقاً أن أذهب إلى المخبأ أم لا.

وفي يوم ٢١ من نوفمبر عام ١٩٤٤، فاجأتني صافرة الإنذار، عندما قام سرب مكون من ١٥٠ إلى ٢٠٠ قاذفة قنابل أميركية بدك المدينة بما يزيد على ألف قنبلة متفجرة، أتبعتها بقنابل حارقة. وترتب على ذلك تدمير المدينة وتحويلها إلى حطام بنسبة ٦٤٪. فلقد لقي مئات من الناس حتفهم، ودُمر تماماً ١٩٠٠ منزل، في حين أصيب ألف منزل آخر بخسائر فادحة. ودكت المنطقة الواقعة على بعد ١٢ متراً فقط خلف منزلنا بقنابل متتابعة الانفجار، مع ما تتركه من حفر هائلة، ترى ماذا كان يمكن أن يحدث، لو أن قاذف القنابل ضغط على المفتاح مبكراً بمقدار عُشر ثانية.. ؟!

عام ١٩٤٥:

كان هدير المدفعية في منطقة الراين قد اعتادنا، حتى تعوّدنا عليه وصار السكون يفزعنا، وكان رجال باتون يحصارون مدينة أشافينبرج بعد ساعات معدودة من عبورهم الراين. وكان باستطاعتهم أن يدخلوا المدينة بسهولة ويسر، لولا أنهم تركوا أنفسهم فريسة للخوف من بعض أفراد المقاومة الشعبية المتقدمين في العمر، ومن بينهم أبي، وبعض أفراد شبيبة هتلر، وبعض أفراد مخابرات النازي المغالين في إخلاصهم لزعيمهم. ورد الأمريكان على هذه المقاومة بحرب مادية بلا حدود.

ولما كان منزلنا يقع على الجبهة مباشرة، فقد فررنا منه إلى «المجهول». وأمضينا، ومعنا كثيرون من جيراننا، ١١ يوماً وليلة في قبو عميق للبيرة يتبع

بستاناً يحمل اسماً مثبطاً هو «الهجوم الأخير». وكانت أمي تطهو في منزلنا كل ليلة ملء إناء كبير من حساء الفاصوليا، لأحمله دون أن تهدر منه قطرة واحدة إلى القبو، تحت نيران قذائف المدفعية المتقطعة.

وكنت في طريقي، ذهاباً وإياباً، أتحدث مع جندي وحيد، حفر خندقاً بالقرب من منزلنا ليحتمي به مع مدرعته. وبينما كنت أمر بهذا الخندق ذات ليلة، تبين لي أنه قد تحول إلى حفرة قنابل، وأن الجندي قد لقي حتفه من جراء قصف موقعه بقنبلة زنتها ربع طن، ألقت بها طائرة حربية من طراز ثاندربولت[1]. ترى ماذا كان سيحدث، لو أنني كنت قد توقفت لأتحدث معه مدة أطول؟!

عام ١٩٥٠:

في ليلة عيد الميلاد، تخلفت بسبب عاصفة ثلجية عن القطار الذي كان سيقلني من شينيكتادي بولاية نيويورك إلى مدينة نيويورك، وما كان لي أن أصل به حتى لو لم يحدث ذلك، لأنه أصيب إصابة بالغة بصاعقة برق.

عام ١٩٥١:

تحدثت في موضع سابق من هذا الكتاب عن حادثة السيارة التي وقعت في مسيسيبي والتي ما كان لي - من وجهة نظر الجراح - أن أنجو منها أصلاً. وبعد أن أصبحت مؤهلاً للسفر مرة أخرى، بعد هذا الحادث، سافرت بالقطار من ممفيس بولاية تنيسي إلى واشنطن العاصمة، وكنت في أثناء رحلة القطار أنكبُّ على القراءة تارة، وأومئ برأسي إلى الأمام تارة أخرى، وأتطلع عبر النافذة أحياناً.

(١) انظر: ألويس شتادمُلر: «أشفنبرج أثناء الحرب العالمية الثانية: قذف بالقنابل، احتلال، تسليم» أشفنبرج (١٩٧٠).

وذات مرة، بينما كنت أشرع في التطلع عبر النافذة، اخترقت «مصادفة» رصاصة طائشة، أطلقت من بندقية صغيرة، زجاج النافذة، ومرّت على مسافة تقل عن بضعة سنتيمترات مني!! ترى ماذا كان سيحدث، لو أنني كنت منكبًّا على القراءة حينذاك؟!

عام ١٩٥٤:

عندما كنت «مصادفة» بمبنى تدريب القانونيين، عند باب النصر بمدينة ميونخ، في أحد أيام الأربعاء، رأيت إحدى السكرتيرات تلصق إعلانا على الباب، يشير إلى أن الأستاذ رودولف بوهلا، أستاذ كرسي إجراءات القانون المدني الجديد، سوف يفتتح حلقة دراسية (تدريباً) للإجراءات المدنية، يشترط لحضورها الحصول على شهادة تدريب في إجراءات القانون المدني بدرجة«جيد»، على أن تقدم طلبات الالتحاق أيام الأربعاء، من الساعة الثانية إلى الساعة الثالثة بعد الظهر.

ولقد كنت حاصلاً على شهادة وحيدة بدرجة «جيد»، وكانت «مصادفة» في إجراءات القانون المدني. وبالنظر إلى ساعتي، تبينت أن الوقت كان قد تجاوز الساعة الثانية بقليل، ومن ثم، لم أكن الطالب الأول الذي يتعرف عليه الأستاذ بوهلا في ميونيخ فحسب، وإنما صرت مساعداً معاوناً له أيضاً، كما صرت فيما بعد مساعداً (معيداً) أساسياً.

وبطبيعة الحال، كان لا بدّ من أن أعد رسالتي لنيل درجة الدكتوراه في أحد موضوعات الإجراءات المدنية، وترتب على ذلك، حصولي على منحة بحثية من مدرسة هارفارد للحقوق بمدينة كمبردج بولاية ماساتشوستس، حيث حصلت

منها على درجة الماجستير. ترى لو لم أذهب مصادفة إلى مبنى تدريب القانونيين ذاك الأربعاء، ماذا كان سيحدث؟!

عام ١٩٥٥:

حضر امتحاني الشفهي «مصادفة» أبو علم قانون الإجراءات المدنية الألماني، الأستاذ ليو روزينبرج. ولكوني معيداً في هذا التخصص، استطعت بطبيعة الحال أن أعرِّف، أفضل الدارسين الأربعة الآخرين الذي يؤدون الامتحان معي، ماهية الحكم الغيابي، ومدى أهمية مفهوم موضوع النزاع فيما يختص بتغيير موضوع الشكوى، وبقوة القانون، وبالتقادم. وكان من نتيجة ذلك، أن سمح لي، وأنا الموظف تحت التمرين من خارج ميونيخ، على سبيل الاستثناء أن أبقى بها.

عام ١٩٥٩:

تلقيت في إحدى عطلات نهاية الأسبوع دعوة من زملاء بمدرسة هارفارد للحقوق، لحضور حفل يقام في مكان قريب من مسكني. وأبلغوني أنني سأعثر عليه بعد مجمَّعين فقط من المباني السكنية، في اتجاه ميدان هارفارد، على مقربة من طريق ماساتشوستس. ولقد كان من اليسير التعرف على المبنى؛ فهو مبنى كبير أبيض يشبه الفيل من حيث الضخامة.

وبالفعل، كانت أصوات حفل تنطلق من مبنى رأيته أشبه بالفيل في ضخامته. ولكني ما لبثت أن تبينت أنني في حفل آخر غير الذي دعيت إليه. ولم يتركني أحد أغادر الحفل، بدعوى أنه لا يوجد على الإطلاق ما يمكن أن يسمى «حفلاً خطأ». وقيل لي: «ابْقَ، واحتفل معنا»!

ولقد كانوا على حق! فهناك قابلت إليزابيث آن جريفيث، التي تزوجتها بعد

ذلك بستة أشهر. هل لو كنت قد ذهبت إلى الحفل الذي دعيت إليه أصلاً، كان سيصبح لي اليوم ابن أمريكي؟!

أعوام ١٩٦٠ - ١٩٦٥:

كنت مرتبطاً حقاً بالجزائر بعلاقة قدرية، على نحو غريب متكرر، كما سبق أن أشرت في فصل «دروب فلسفية إلى الإسلام».

فبراير عام ١٩٧٦:

في التاسع والعشرين من يناير، عرضت إيفا كامبيانو، بمصاحبة رباعي إدوارد ميلكوس، باليه عصر النهضة في مسرح ألبرتينا بفينا. ولقد دُفعَتْ بلبين أوتس - العازفة التركية في مرحلة الامتياز، بالمعهد العالي للموسيقى والفنون التشكيلية - إلى مشاهدة العرض على الرغم منها. فلم يكن لديها رغبة في ذلك على الإطلاق، (ولذلك جاءت متأخرة). ولقد أرغمت أنا أيضاً على مشاهدة العرض من جانب كورت بيتز الصحفي الكولوني. وبدوري، لم يكن لدي على الإطلاق رغبة في مشاهدته، (ولم أكتب نقداً حوله). وبعد عام واحد من العرض، تزوجنا.. بلبين وأنا!! فماذا كان سيحدث لو لم يذهب أي منا لمشاهدة هذا العرض؟!

مارس عام ١٩٧٦:

على الرغم من أن الحياة في فينا تعجبني، ومن أن محادثات حلف شمالي الأطلنطي وحلف وارسو حول إزالة الأسلحة من أوربا الوسطى كانت تمثل لي يوميًا جولة جديدة مثيرة في لعبة الشطرنج، فقد طلبت نقلي بعد ثلاث سنوات ونصف من العمل فيها وفي يناير من عام ١٩٧٦، عرض علي مدير شؤون

المعاملين بوزارة الخارجية منصب السفير في جدة. وكان ذلك قبل الفورة النفطية منصباً شاقاً جداً، حيث لم يكن هناك طبيب أسنان بعد. وكان زوجتي الأمريكية قد توفيت في العام السابق. . فهل كان بوسعي بوصفي أعزب أن أحتمل الحياة هناك؟ ولأنني أشعر بخوف شديد أمام الواجب، فقد قبلت المهمة.

أجريت لي في اليوم ذاته اختبارات تحمُّل مناخ المنطقة الحارة، واتصلت بسلفي في المنصب، ودرست ملف البلد، واشتريت ملابس ملائمة لطقس المناطق الحارة. وبعد ١٤ يوماً، أوصى مكتب الخدمات الصحية بوزارة الخارجية، استناداً إلى نتائج التحاليل المخبرية، بإجراء تحليل لبولي، نظراً لوجود كرات دم بيضاء به.

ولو أنني كنت أعير أمر صحتي قدراً أكبر من الاهتمام، لكنت قد أدركت أن جميع اختبارات قدرتي على تحمل مناخ المناطق الحارة ستؤدي إلى النتيجة نفسها، دون التوصية بإجراء المزيد من الاختبارات. وعندما ذهبت إلى العيادة الخارجية لمستشفى فينا الجامعي ٢، لأطلب إجراء الاختبار بسرعة، إذ ينبغي أن «أرحل إلى جدة على عجل»، التقيت «مصادفة» بأخصائي الكلى، دكتور بول شميت دينست، الذي لم يكن على الإطلاق في عجلة من أمره، فراح يجري لي فحوصاً أكثر تعقيداً. وبعد أسبوع، أجريت لي في يوم ٢٣ من مارس جراحة لاستئصال الكلية اليسرى، بسبب إصابتها بورم سرطاني من نوع خطير، حتى إنني ما كنت لأبقى على قيد الحياة عاماً آخر ما لم تُجر الجراحة.

بعد نصف عام من مباشرة عملي - في بلجراد وليس في جدة - عدت إلى فينا لإجراء فحص للمتابعة. وكانت نتيجة تحليل البول مذهلة، إذ كان ما يزال في البول كرات دم بيضاء، وإن كان عددها قد انخفض إلى النصف. وتبين لنا أن

الطبيب اكتشف الورم السرطاني استناداً إلى أعراض ليست من بين أعراضه على الإطلاق!!

ولو لم أطلب نقلي من فينا، لما عرض عليّ منصب في منطقة حارة.. ولو لم أقبل هذا المنصب، ما كنت ذهبت لإجراء الفحوص.. وما كنت التقيت بالأخصائي.. وما كنت كتبت هذا الكتاب!!

هذه الوقائع الدرامية، والأقل منها في دراميتها، لا تؤكد شيئاً، وإنما تبين كل شيء. فهي علمياً ليست شيئًا، ولكنا على المستوى الشخصي كل شيء. إنما لا تؤكد شيئاً، لأنها وقائع شخصية جداً تعكس سلسلة من الأسباب والنتائج التي تدل على تصرّف الله في تسيير الأحداث. فهل نعلم حقاً أن «واقعة حظ» غير عادية «قسمة» تجلب لنا الحظ، وأن «واقعة سوء حظ» غير عادية «قسمة» تجلب لنا سوء الحظ حقيقياً؟

وبالمثل، تبين لي الأحداث المشار إليها كل شيء. ففيها يكمن إحساسي الشخصي بالأمان، بسبب رعاية الله لي. وربما يؤدي هذا الشعور إلى القدرية (أي الاستسلام للقدر). ولكن لا ينبغي - ولن يحدث أيضاً - أن يستطيع المسلم، عندما يتبين له ذلك، أن يدرك مشيئة الله في كل ما يقع له من أحداث مقبلة. ومن ثم، فإنه يمكن أن يكون قدرياً فقط في مواجهة حدث وقع بالفعل، وبالتالي يجب أن يقبله، وهو سيقبله، دون أن ينتف شعره، أو يلطم الخدود ويشق الجيوب، كما يفعل بعضهم.

لا يعني هذا أن المسلم قدري فيما يختص بالمستقبل، أو أنه يجوز له أن يتواكل

في أمر من أموره بل ينبغي عليه النقيض من ذلك؛ أن يكون عضواً نشطاً في جماعة: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (سورة آل عمران - الآية ١٠٤). وكذا: ﴿ **يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾. (سورة آل عمران - الآية ١١٤). فهل هذه دعوة إلى القدرية؟!

إننا على معرفة تامة بهذه القضية، ومن خلال نظرية «المادية التاريخية» و «المادية الجدلية» لزمن الشيوعية الغابر. فوفقاً لتعاليم ماركس - إنجلز، التي كانت تتسم بالقدرية الشديدة، يتحرك التاريخ وفق قوانين جدلية لا مفر منها إلى غايتها، وهي مجتمع بلا طبقات. ومع ذلك، لم يتوقف لينين ولا تروتسكي ولا ستالين ولا عناصر الصف الخامس عن العمل من أجل «بناء الشيوعية».

لقد فسر رسول الإسلام ﷺ هذا الأمر في صيغة بسيطة بقوله: «اعقلها وتوكل»، أي إن على المرء أن يعقل ناقته وأن يترك ما بقي لله. ولقد تسلحت بهذا اليقين حينما كنت بالجزائر، دون أن أتوهم لحظة واحدة أنني أستطيع بمسدس أن أطيل حياتي ولو ثانية واحدة إذا حان أجلي. وكنت دائماً شديد الاقتناع بأن الرصاصة التي لم تصبني، لم تكن تمثل خطراً بالنسبة لي أياً كانت درجة قربها مني.

في أثناء عملي مديراً لمعلومات حلف شمالي الأطلنطي (١٩٨٣ - ١٩٨٧)، عادت مسألة اتخاذ تدابير لحماية النفس تَفرض نفسها من جديد، عندما أخبرتني مصادر وجهات مختلفة عديدة أنها تخشى أن ألقى المصير الذي لقيه زميلي السابق فون براونميل، الذي راح ضحية عملية اغتيال. ولقد خبرت منذ ذلك الوقت كل الإجراءات المعروفة لحماية الشخصيات الرسمية، بما يمكن أن يقترن بها من

إجراءات روتينية ومن مضايقات. وكنت فيما مضى أشفق على من يُسمَّون «الشخصيات المهددة بالخطر»، بسبب فقدانهم حرياتهم الشخصية. والآن، ينبغي عليّ أن أمارس بنفسي « ألعاب سيرك الأمن».

ونظراً لتحولي من استخدام مسدسي (والتر ٦٥، ٧) إلى استخدام مسدس سيدات بسبب تطور وسائل العنف، قام مدرب الرماية في فرقة مقاومة الإرهاب البلجيكية بتدريبي على استخدام مسدس ٩مم (هيكلر وكوخ ٧م ١٤) في أوضاع مختلفة.. وقوفاً ورقوداً.. في الليل وفي النهار.. باليد اليمنى وباليد اليسرى... وبأنواع الذخائر كافة، للدفاع عن النفس. وكان التركيز الضروري في وضع الرماية يستنزف قواي البدنية تماما.

كان يتحتم عليّ أن أنجز، بالإضافة إلى التدريب، العمل الذهني فيما يختص بتصور جميع الحالات المحتملة لهجوم أتعرض له، وردود الفعل السليمة لها. وفي حالات الضرورة، يكون رد الفعل المؤكد لا شيء. وكلما تحسنت النتائج التي أحققها في الرماية وفي إصابتي للهدف، كان يساورني شك دائم في جدوى كل هذا الجهد الذي أبذله. فهل يعني هذا أنني قد أكون قدرياً بالمعنى السلبي للكلمة؟

لا يمكن للمرء أن يتحدث عن القدرية في العالم الإسلامي، دون أن يتطرق الحديث إلى ظاهرة الحسد، الذي لا يشك مسلم في وجوده. أما في الغرب، فيفضل المرء أن يتحدث كطبيب عن تأثيرات «نفسية»، وكـ«هيبي» عن «إشعاع خبيث»، وكعالم نفساني عن «تنبؤات تتحقق ذاتياً» بحظ عاثر.

إننا نصادف بطبيعة الحال حالات ملموسة للحسد، ومن الخطأ علمياً أن نتعجل فنستنتج من ذلك أن الحسد مجرد وهم. ومن الخطأ أيضاً أن نتصور أن

المرء لا يلاحظ الحسد في مواضع أخرى، لا لسبب إلا لأنه كفيف غير مبصر.

لقد شاهدت في تركيا، على سبيل المثال، طبقاً غاية في الجمال وهو يتحطم فجأة في المطبخ، في أثناء زيارة إحدى القريبات، دون أن يتعرض لأي تأثيرات خارجية. ولكننا لا نستبعد أن تكون هناك تأثيرات داخلية. فمن المحتمل أن يكون الطبق قد تحطم بفعل توترات داخلية في بنيته، أو بسبب ذبذبات زائدة. ولكن ألم تُبد هذه القريبة، المعروف عنها حسدها إعجابها الشديد بهذا الطبق الجميل؟! ربما يكون قد فاتنا آنذاك أن نقول «ما شاء الله» (بمعنى أن الله قادر على حفظه).

للأسف الشديد لم ينجح الإسلام بعد في فرض جوابه (رده) الصحيح على هذه المشكلة، وهو اللجوء إلى الله، في العالم الإسلامي. فما يزال كثير من المسلمين يلجؤون علانية إلى السحر بوصفه علاجاً ممكناً، بدلاً من قراءتهم للمعوذتين في القرآن، وبصفة خاصة سورة الفلق (السورة ١١٣):

﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** ﴾[1].

وما هو أسوأ من ذلك، أن بعض المسلمين يلجؤون إلى استخدام هذه السور في أعمال السحر، وفي عمل التعاويذ (الأحجبة)، حتى إن قول «ما شاء الله» المذكور في القرآن يستخدم على نحو مرتبط بالخرافات. ولا يستطيع المرء أن يتخيل إلى أي مدى تسعى بعض النساء المسلمات إلى أعمال السحر. في أسواق المدن المغربية، مثل فاس، يوجد كثير من المحلات التي تبيع فقط مستلزمات أعمال السحر: كالزيوت والعصائر، وأنواعه من البودرة، وسحليات مجففة،

(١) انظر: محمد رسول: سورتا الحرز. (المعوذتان) كولونيا (١٩٨٢).

وحتى عرائس تستخدم في أعمال سحر لإيذاء بعض الناس ولإشعال الحب في قلوب آخرين. وتشتهر قبائل الريف بممارسة هذا الفن الأسود. وإن لم تكن منفردة وحدها بذلك.

لم تكن زوجتي تستطيع، ونحن في المغرب، أن تمنع خدم المنزل من خلط بعض المواد وحرقها قبل وبعد الحفلات الموسيقية (كونشر تو الهارب) التي تعزف فيها زوجتي على الهارب. وكانوا يفعلون ذلك قبل الحفل لحماية يديها وآلتها الموسيقية من شر الحسد، وبعد الحفل لحمايتها ﴿مِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. وكانوا يحرصون أشد الحرص على إخفاء هذه المواد عني.

إن من يريد التهكم على هذا السلوك، عليه أن يثبت أن الناس في الغرب لا ينزعون إلى اللجوء إلى أعمال السحر، بدءًا من قراءة الطالع والأبراج، لمواجهة مشكلات حياتهم.

نخلص مما تقدم إلى أنه لا يجوز للمسلم أن يكون قدرياً أو سلبياً، وإلى أنه ينبغي عليه أن يسعى جاهداً من أجل الخير في هذا العالم. وهذا السعي، هو أولى وأرقى معاني كلمة «جهاد» التي يهوى بعض أدعياء الاستشراق ترجمتها إلى «حرب مقدسة»!!

كانت هناك أيضاً حروب دائمة باسم الإسلام للدفاع عنه، تكتيكياً أو استراتيجياً. وإلى يومنا هذا، يستطيع رئيس دولة إسلامية أن يمني النفس بعمل الكثير لتلبية دعوة الجهاد. فعندما تتفاعل الأرواح على نحو آخر تزداد القدرة على التضحية، وخاصة أن الشهداء الذين يسقطون في الكفاح في سبيل الإسلام

مثواهم الجنة، ويعلم الجميع الإمكانية السياسية التي تكمن في هذه الحقيقة. ولقد حاول صدام حسين أن يستخدمها في حرب الخليج. في حين لا يدعو التلفزيون التركي من يلقى حتفه شهيداً إذا كان الأمر يتعلق بمن يقتل من أفراد حركة الانفصال الكردية، مدنياً كان أو عسكرياً.

إن أقل الناس قدرية، وأكثرهم نشاطاً في سلوكهم، هم أتباع ما يسمى بالحركات الإسلامية، مثل الجبهة الإسلامية للإنقاذ بالجزائر، الذين ينشطون من أجل التمكين السياسي لإسلام راديكالي متشدد في أوطانهم. وتسعى الغالبية العظمى من المسلمين من الشباب ومن المثقفين، ومن حملة الشهادات العلمية في العلوم الطبيعية، بحماسة شديدة إلى تطبيق ما تنص عليه الآية ١٠٤ من سورة آل عمران - السالف ذكرها - تطبيقاً صارماً.

لقد عايشت ذلك بنفسي في الجزائر في المدة من عام ١٩٨٧ إلى عام ١٩٩٠. ويبدأ الأمر غالباً بمحاولة أحد الأبناء - ليس بالضرورة الأكبر سناً - فرض تصوراته عن الأخلاق الإسلامية على أسرته، وإرغام شقيقاته على ارتداء الحجاب. ولذلك، نادراً ما توجد بالمدارس فتيات لا يرتدين ملابس إسلامية. وحتى هؤلاء الأخيرات ينصحهن آباؤهن وأمهاتهن بارتداء الحجاب، مجاراة للاتجاه العام السائد، حتى تزداد فرصهن في الزواج. وهكذا يتصاعد هذا الاتجاه في الشارع وفي المدارس.

ولقد شاهدت مرة في بوزاريه شاباً يبصق أمام امرأة سافرة وهو يردد «أعوذ بالله»، كما لو كانت شيطاناً. وكذلك، رفض الطلاب فجأة الإقامة مع الطالبات في مبنى سكني مشترك، حتى وإن فصلت بينهما طوابق المبنى. كما رفضوا أيضاً تناول الطعام معهن في مطعم الجامعة، دون فصل حاد بين الرجال والنساء.

ويأتي بعد ذلك، من منطلق الجهاد، بثّ الفضيلة في الحياة العامة. فالشاب المسلم يشعر في كل مكان كما لو كان ما يزال في عصر الجاهلية. ومن ثم، فإنهم يرون أن واجبهم هو تحويل ما يرونه مجتمعات الجاهلية الجديدة إلى مجتمعات إسلامية عبر حرب أهلية يرونها مشروعة، أو أن يهاجروا داخلياً كما حدث في عصر الرسول ﷺ.

ابتداء من عام ١٩٨٨، قام مسلمون حديثو العمر في الجزائر بفصل أسلاك هوائيات استقبال الإرسال التلفزيوني في الأبنية الكبيرة لمنع الناس من مشاهدة برامج وأفلام فاضحة. وهم يطلقون على هذه الهوائيات اسم الهوائيات الشيطانية. وقام آخرون بتحطيم قوارير الخمور في البارات، وبتمزيق لوحات فنية بمحال بيع التحف لتصويرها نساء غير محتشمات، إذ يرتدين ثياباً خفيفة.

كان هؤلاء الشباب يتسمون بالجدية والمثالية في تعاملهم مع الأمور. وكانوا يكافحون، في ظل ظروف تكتنفها مخاطر وتضحيات شخصية هائلة. من أجل عالم أفضل يقو م على مبادئ الإسلام، خال من الاستغلال، ومن الفساد، ومن الامتيازات، ومن البذخ والترف، ومن الدعارة والمخدرات. ولكنهم ارتكبوا خطأ وحيداً، إذ خالفوا أمراً أصيلاً وجوهرياً في الإسلام، ألا وهو عدم الإكراه في الدين، كما جاء في الآية ٢٥٦ من سورة البقرة: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾. ومن ثم، فإنهم أحلوا النفاق العام محل القيم الأخلاقية العامة. ولقد وقعوا إلى جانب ذلك فيما وقع فيه بعض المتزمتين قبلهم، إذ وحَّدوا في شخص واحد أشخاص المدَّعي والقاضي ومنفذ الحكم، فسلكوا بذلك مسلكا ثيوقراطياً - فاشياً.

لقد تجاهلوا أنه في ظل كيان دولة منظم، يصير الفرد مسؤولاً فقط في حدود مسؤوليته الشخصية عن الدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر. فالوالدان مسؤولان عن ذلك في أسرتهما، والمدير في مؤسسته، ورئيس الجامعة في جامعته، ورئيس الدولة في دولته.

لا يمثل هؤلاء المسلمون الإصلاحيون الشبان خطراً على أوربا، وإنما على حكومات بلدانهم. لقد شاركت، بناء على دعوة من المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر، في مؤتمر عقد بالقاهرة في المدة من ١٩ إلى ٢١ من يناير عام ١٩٩٩٣، لمناقشة هذا الخطر على وجه التحديد. وكما هي العادة، كان المشاركون هم وزراء الشؤون الإسلامية ومفتي الديار في كل الدول الإسلامية تقريباً، أي من المؤسستين اللتين اغترب عنهما الشباب المسلم بقوة في الآونة الأخيرة. ولقد نسي المنظمون أن يدعوا إلى المؤتمر ممثلين لهذا الشباب، وخصوصاً متحدثين عن الإخوان المسلمين. وبذلك، صار المؤتمر جزءاً من المشكلة، بدلاً من أن يكون أداة للمساعدة في حلها.

وعلى الرغم من كل الانتقادات، فإنني أتمنى لبعض المجتمعات في الغرب شباباً قادراً على إحداث بعث أخلاقي (هل ينبغي أن أقول«تحول»؟) مماثل لما حدث في مجتمعات إسلامية، ومستعداً للتضحية في كفاح ضد حكم استبدادي فاسد.